أمهات المخطوفين: «أم تيسير» تأتي من الطبيب إلى الاعتصام

قبل ثلاثة أعوام وصلت أم تيسير إلى الاعتصام متأخرة. رحبت النسوة بها وسألنها عن سبب التأخير فقالت انها كانت عند الطبيب، فقلن لها ولماذا تأتين ما دمت مريضة. «لو بدي أموت بدي آجي»، أجابت أم الشبان الاربعة المخطوفين منذ الاجتياح. وقبل ثلاث سنوات أخرجت من كيسها الصورة الجماعية لعائلتها التي اختفت وما هي الا لحظات حتى رفعت شكواها إلى الله بأعلى صوتها وراحت تدعوه أن يُنزل أشد بلائه بالمسؤولين.. كل المسؤولين، الذين خطفوا اولادها والذين يحملون مسؤولية البلد اليوم ولا يفعلون شيئا من اجلها. بكت وأبكت. ضحكت وأضحكت. ثم وضعت يدها على خدها وغابت في صمتها.

البارحة جاءت ام تيسير إلى الاعتصام متأخرة. جاءت بخطى سريعة.. ولم تنتظر سؤالا لتجيب بأنها آتية لتوها من الطبيب ثم تعيد مشهد ثلاث سنوات خلت بأدق تفاصيله. في النصف الفارغ من الكوب، ما زالت قضية أم تيسير عالقة، في النصف المليء منه، أم تيسير لم تخسر إيمانها بقضيتها، وما زالت جديرة بأن تُرفع لها كل قبعات العالم.

ليس وحدها. كل اللواتي عدن إلى الاعتصام في كل خميس عند الرابعة والنصف أمام المتحف الوطني، أمام عيني مجلس وزراء منعقد ليبحث في القضايا الكبرى، جديرات بأكثر من قبعاتنا، جديرات بأن يعرفن مصير اولادهن الذين اختفوا بين الثنايا الصعبة للحرب اللبنانية.

البارحة كن ٢٥ سيدة. أحاط بهن ١٢ دركيا وأكثر من عشرة عناصر بثياب مدنية. دار واحد منهم بكاميرا الفيديو على وجوههن. هذه التقنية السينمائية التي وقعت الدولة في غرامها منذ اللحظة الاولى ولم تعد توفر أحدا من هوايتها، حتى النسوة اللواتي لا يقدرن على «الشغب» حتى لو قررن أن «يشاغبن». على كل حال، لن تستطيع القوى الامنية شيئا حيال شغب تحترفه الامهات بعفوية: شغب ذي وجهين، وجه حزين تَرِقّ له ملامح الدركيين، ووجه ساخر يُضحك حتى «مدنيي» الدولة وهم يتعرضون للذاعته الذكية. وبين هذين الوجهين، هناك الحكايات التي تبدأ عند أم تيسير التي أخذ الكتائب أولادها وتنتهي عند أم ثانية تؤكد لعناصر الدرك المساكين أن ولدها في السجون السورية. هكذا، تتضارب حكاياتهن سياسيا لكنها تلتقي عند مصيبة جامعة. وهكذا، تتحول وجوه شبان الدرك إلى جمهور بجميع أنواعه. عنصر يتصنع وجها متأثرا بشدة. وجه يفغر فاه ويفتح عينيه وتقول كل جوارحه انه يستميت كي يفهم شيئا لكنه لا يستطيع، إلى الوجه الثالث اللامبالي... وهكذا.

هذا اسكندر في ثوب تخرّجه. وهذه أمه تعرض الصورة على الدركي. هنا لوم لأن الدرك وضعونا في مكان خفي عن عيون الوزراء المارين بسياراتهم، وهناك يمر الموكب المهيب لرئيس مجلس الوزراء وعدد سياراته يكاد يقارب عدد السيدات. عالم من الحكايات يبدأ بيوم الاختطاف ولا ينتهي إلا بغصة. دائما هناك من ستنسحب بعيدا لتبكي وحدها. وهناك دائما كلام جديد. «ما عم حس بالفرح اذا رحت على عرس»، تقول مريم لرجل جاء يرافق خالته؛ أم أحد المخطوفين إلى المكان. «وبس روح على مأتم ما عم حس بالحزن». «بس دايماً في شعور واحد». تشبك مريم أصابع يديها، وتقرب كتلة كفيها أمام صدرها. مريم تشير إلى قلبها حيث يقبع هذا الشعور من اللاحزن واللافرح.. الشعور بالغصة الذي يعصر القلب.

تصل وداد حلواني متأخرة كثيرا.. يتجمعن حولها كما كان طقسهن الدائم قبلا. تعتذر عن تأخرها لارتباطها بعمل وتعد بأنها لن تكرر فعلتها.. «شو بدي خبرك؟» تقول وداد لإحدى السيدات بينما تجرها من يدها.. «تعي نتجمع ونخبر بعضنا بصوت عالي». ولوداد فعل السحر فيهن. ينصتن تماما حين تحدثهن وينظرن في وجهها من دون أن يرمشن. تحكي: ثالث أسبوع من الاعتصامات. واذا كان المسؤولون يظنون أننا سنتعب فنقول إننا ما زلنا هنا.. واقفات حتى يتحقق مطلبنا. مر اسبوعان على طلبنا لقاء رئيس مجلس الوزراء ولم يحدد لنا موعدا. لن نذهب من هنا حتى «يفرج عنا». أي حتى يفرج عن التقرير. يا جماعة، زميلتنا رفعت دعوى أمام القضاء تخص ابنها المخطوف وسينظر القضاء فيها قريبا. علينا جميعا أن نقف إلى جانبها وأن نحذو حذوها. يا جماعة، قضية المخطوفين والمفقودين لم يشملها قانون العفو العام لأنها جريمة مستمرة ومتمادية، ويمكننا أن نلجأ إلى القضاء.

ينهي صوت وداد الاعتصام. يقترب مدنيو الامن من حلقة نسوة يتحدثن. «يا شباب» تخاطب سيدة الامنيين بالثياب المدنية: «الخميس الجاي بدكن تحملوا لافتات معنا»، فينفجرون ضاحكين.

موعد الاعتصام هو الرابعة والنصف عصر الخميس أمام المتحف الوطني. يتزامن مع انعقاد جلسة مجلس الوزراء الاسبوعية في مقره هناك. اذا ما صودف مرور أحدهم من هناك الخميس المقبل فقد يلتقي بأكثر المعجزات لطفا. قد يصادف رجال أمن يحملون لافتات تدعو الحكومة إلى الكشف عن مصير مخطوفي حروبنا.

إذا صادف مرور أحدهم من هناك وكان لديه بعض الوقت فليقف ويستمع إلى حكاياتهن. لن تبخل واحدة منهن عليه بحكايتها. ومن يدري، فقد يحمل في الخميس الذي بعده لافتة ويقف ويطالب بالقضية الاشد صدقا.. القضية التي يحملنها في اطارات الصور وفي قلادات تتدلى من الاعناق.. وفي كل جوارحهن. فليجرب. لن يخسر شيئا.

جهاد بزي

أمنيون ومعتصمات ككل خميس (علي علوش)